

الفم ٢٠١٥-١٠-٠٧

١١٣٣-في شرف صحبة نجيب محفوظ



## في شرف صحبة نجيب محفوظ

الحلقة الأربعة والأربعون

الجمعة : 1995/3/11

كادت القاعدة تصبح لا أحضر يوم الجمعة بوجه خاص، بسبب سفرى المنتظم نهاية الأسبوع كما ذكرت، حين أقول له إنه أصبح بيته أكثر من بيتي، لا اقولها جاملة، وإنما فرحة، هذا الأسبوع هو في بيتي أيضاً، أعني بيته، الحمد لله، لم أحضر لقاءه الأسبوع الماضى، دون أدنى حرج، كان الأستاذ طيباً "ملعللاً" هذه الليلة، ربنا يخلصه، جرى الحديث عن التاريخ وتدوينه ومدى المصداقية في ذلك كله، ياه!! لن ينتهي هذا الحديث أبداً، مثله مثل حديث الديقراطية، وأيضاً موضوع احتمال أن يتول الإخوان الحكم، ضربت مثلًا لأبنى مدى اهتزاز مصداقية التاريخ: كتابة هذه المذكرات مثلًا، فلو أن واحداً طلب من الجلوس معنا الآن أن يسجل ما حدث هذه الليلة لمدة ساعة واحدة، بعد سبع دقائق من انتهاء الحديث فكم منا سيتفق مع كم منا في حكي نفس الحكاية؟ فيما بالك إذا طالبناه بحكيها بنفس الأنفاظ، وهنا ثارت قضية كتابة الأناجيل (والآحاديث النبوية الشريفة): قال الأستاذ: إن الأناجيل كتبت بعد سبعين سنة من موت المسيح، وباسترجاع تاريخ المسيح الذي لم تستمر رسالته سوى أربع سنوات قال الأستاذ أنظر ماذا بقي للناس من ذلك بعد كل شيء: الرومان بهيلمانهم وسلامهم ينتهون هكذا أمام شاب وديع يعيش في حارة ويشفى بعض المرضى، لا بد أن الأمور كانت مهيبة لهذه النقلة، مثلما حدث

في الإتحاد السوفيتي، فحين همس، ثم قال، ثم أعلن جورباتشوف بأنه "لا" ليس هكذا، وتصدى لما يجري من حكم شول، وشيوعية عمباء قاسية، إنهار الإتحاد السوفيتي، ربما كان مثل ذلك هو ما فعله ابن الامبراطور الرومانى حين آمن باليسعية، لكنه بعد ذلك طاح في غير المسيحيين نساء ورجالاً وأطفالاً فانعكس الآية، قلت له لا يطمئننا هذا إلى أنه فعل "لا" يصح إلا الصحيح" وأنه لا الحكم حالياً، ولا حكم الجماعات إليها لو جاءت مهما اشتد عودها وعلا صوتها، سوف يدوم أى منها، مadam توجه هذا وذاك هو ضد التاريخ ضد صالح البشر، فأفقر كلامي الذي تعلمته منه أصلاً.

انتقل الكلام إلى غلبة التفكير التأمري في الشرق خاصة، وقبل أحدهم أن جمال عبد الناصر نفسه ليس إلا صنيعة الأمريكان، وحتى حرب ٦٧ قيل أنها كانت للتخلص من عبد الحكيم عامر، نتهنا الأستاذ بوضوح: أنه ليس إلى هذه الدرجة، وإن لمدققنا الإشاعة التي أشاعها الإخوان أن عبد الناصر كان يهودياً وكان يسكن في حارة اليهود مع أبيه، ولا يسكن في حارة اليهود إلا يهودي، في حين أن المسألة كلها هي أن حي الخرنفش يقع جنوب حارة اليهود، ويبعد أن نافذة منزل والد عبد الناصر كانت تطل على حارة اليهود، لكن خذ عنك.

فجأة قال الأستاذ أنه أثناء نوم القيلولة هذه الظهيرة حلم بجمال عبد الناصر وكان الحلم هكذا:

"هو جالس يتكلم أو يهم بأن يتكلم في التليفون وإذا وبعد الناصر يدخل عليه فأسرع بإنهاء المكالمة أو قطعها ليترك التليفون لعبد الناصر الذي تكلم فعلاً وطلب رقمًا يذكره الأستاذ بوضوح وهو ١٦١٦، (ستاشر ستاشر) ثم سمع صوت آخر في الردهة يقول: إن عبد الناصر يكلم واحدة، وأنه لا بد متزوج من أخرى".

إنتهى الحلم.

فرحت أن يتطلع الأستاذ حتى مثل هذا الحلم هكذا بهذه البساطة، وتعجبت بيدي وبين نفسي من هذا الوضوح، واجتهد الجلوس في التفسير، دعاية، وجداً، "ستاشر ستاشر" هذه واحدة، وزكي سالم يقول لعل هذا يبين أن عبد الناصر الذي نعرفه غير عبد الناصر الذي وصفه الأهرام مؤخراً وأكيد على مرحه حتى كاد يقارنه بسعد زغلول (على ما ذكر)، وأن عبد الناصر - مثل أي بشر - له جانب آخر، أو كما يقول الحلم: زوجة أخرى، ولم أشارك في تفسير الحلم تأكيداً لما وقفي من حكاية تفسير الأحلام مما ذكرته مكرراً، كل ما عقبت به - ربما لنفسي - هو أن ما بلغنى هو أن بداخل الأستاذ طفل هليل، له خيال بديع، وأن مستويات وعيه هي حقل خصب مليء بعبد الناصر وغيره، وفي نفس الوقت يصلى من حكى الحلم وسلامة النقلات نوع الحركية الدمشقة بين مستويات وعيه، وأستنتج كم أن ظاهر الأستاذ قريب جداً من باطنها، وأن خياله في هذه السن ما زال نشطاً تماماً، ومتناجماً مع أفكاره وموافقه

على ذكر السن، نسيت أن أثبت ما حدثنا الأستاذ به أمس (في لقاء الخرافيش) عن أولاد أخيه إبراهيم الذين ماتوا الواحد تلو الآخر وهم بعد في العقد السادس أثناء العمل رغم أن والدهم معمراً، ثم عرج إلى والدته التي عمرت إلى ما ينهاز المائة سنة، أو لعلها خطأتها، وقد كانت تتبع جميع العادات السيئة (الغذائية والصحية) المشهورة بتقصير العمر، وحتى السجائر لم تكن تدخنها، لكن الأخ الأكبر راح يداعبها في سن الثمانين ويعزم عليها بالسجائر، فتمسك بها حتى الوفاة.

وأمس أيضاً (في جلسة الخرافيش كذلك) جاء ذكر وفاة أمينة زغلول صاحبة حلات "فلفلة"، ماتت ثانية أيام العيد، وكانت إمراة لها تاريخٌ آخر، أحبتها توفيق صغيراً، من بعيد لبعيد، فهو من الإسكندرية، وتزوجت ابن اخت الأستاذ وابنه نبيل على ما ذكر، واتهموا الأستاذ أنه شجعه على ذلك، ويعقب هو على هذه الإشاعة أنه: "والله العظيم ثلاثة لا شجعه ولا حاجة" ويحكي القصة: وكيف أنه جاءه بصفته خاله يسأله عن رأيه في امرأة جميلة يحبها، ويريد أن يقترب منها، فقال له: "أنت تسفر إلى الخارج كثيراً، فانتظر حتى ترجع بعد أن تبتعد عنها مدة، وعن زوجتك وأولادك أيضاً، ثم فكر بهدوء، وقد فعل، وسافر، وفكَر بهدوء، وتزوجها، أنا مالي!!؟"، ويضحك، ونضحك.

كانت تيمة فيلم "إينة ريان" قد أخذت حيزاً أمضاً جعلني أتوقف أمام ذكريات الأستاذ وهو يحكي أن هذه التيمة المكررة تيمة الذي يذهب للانتقام فيقع في حب غريمه - تكررت في دعاء الكروان لطه حسين، وفي كيلوباترا، وكذلك تيمة زوجة الأخ التي تغوى شقيق زوجها أو ابن زوجها ثم تفهمه هو أنه الذي أغواها، من أول إمرأة العزيز وأنت قادم، فذكرته بأن هذه التيمة ربما هي التي جاءت في ملحمة الخرافيش (ربما عزيز الناجي...) .. ولم أستطرد، ولم يعقب.

رجعنا إلى حديث الإشعارات ومصداقية التاريخ وقال لنا الأستاذ كيف أن السلطة والإنجليز كانوا قد منعوا اسم سعد زغلول من التداول، حتى كان ساعي البريد يكتب "سعد زغلول" على الخطابات، وكان بائع البيض يكتب "سعد زغلول" على البيض، فسارت إشاعة بعد ذلك أن الفراغ تبييض بيضا مكتوباً عليه "سعد زغلول"، ورفضها سعد باشا طيباً، ونفها، وأوصى بعدم تداولها.

وعلى ذكر تليفون عبد الناصر - في الحلم - ورقم "ستاشر ستاشر" الذي تكرر، تذكر الأستاذ أغنية لا أعرفها لسيد درويش تقول: "خمسة في ستة بستاشر، وبماريس في الوجه البحري" وعقب عليها، وربما تذكر أحدها أغنية شادية: "خمسة في ستة بثلاثين يوم غايب عني وغاب النوم"، وقللت له إنه كانت عندنا أغنية تسخر من المدرسین بظرف، كنا نرددتها رسينا في احتفالات المدرسة الابتدائية في زفتا، بسماح أستاذنا ومساركتهم وفيها فقرة تقول:

جه أستاذ الحصة الساتة ، أستاذ هندسة ويـا حـساب ،  
قال لي اضرب لي مـحـسـه فـسـتـة ، ولا اـتـفـضـلـ بـرـهـ الـبـابـ ،  
قلـتـ يـاـ بـيـهـ أـضـرـبـ مـيـنـ فـيـهـ ،  
دولـ تـلـاتـينـ مـاـ اـقـدرـشـ عـلـيـهـ ،  
أـنـاـ غـلـطـانـ ؟  
مشـ غـلـطـانـ ؟  
إـمـالـ يـعـنـيـ اـتـعـاقـبـ لـيـهـ ؟  
الأـسـتـاذـ الحـقـ عـلـيـهـ ،

ويـضـحـكـ الأـسـتـاذـ ، وـأـعـيـدـ عـلـيـهـ كـيـفـ أـنـ المـدـارـسـ الـآنـ تـزـيـفـ  
وـعـىـ الـأـطـفـالـ بـأـغـانـ مـدـيـجـ مـاسـخـهـ مـنـ أـوـلـ "ـمـدـرـسـيـ أـيـاـ مـلاـهـاـ ،  
أـهـواـهـاـ وـأـدـوـبـ فيـ هـواـهـاـ"ـ حتـىـ "ـوـالـفـضـلـ كـلـهـ لـبـابـ جـهـالـ..ـ ثـمـ  
الـفـضـلـ كـلـهـ لـبـابـ سـادـاتـ"ـ وـرـبـعـاـ أـحـسـوـاـ أـنـ الـبـيـتـ سـوـفـ يـنـكـسـ  
لـوـ قـالـلـوـ "ـوـالـفـضـلـ كـلـهـ لـبـابـ مـبـارـكـ"ـ ..ـ وـرـبـعـاـ لـهـذـاـ أـرـجـعـوـاـ  
حـالـيـاـ "ـالـفـضـلـ كـلـهـ لـمـاـ سـوزـانـ.."ـ ،ـ وـلـاـ يـعـقـبـ الأـسـتـاذـ ،ـ وـيـصـلـيـ  
مـنـ جـدـيدـ اـحـترـامـهـ الـحـقـيـقـيـ مـلـنـ فـيـ مـوـقـعـ مـسـنـوـلـيـةـ حـقـيـقـيـ ،ـ بـرـغمـ  
سـاحـهـ بـالـفـضـلـ عـلـيـهـ بـالـنـكـتـ أـحـيـانـاـ ،ـ فـأـنـتـبـهـ إـلـىـ صـمـتـهـ الـآنـ  
وـأـقـرـرـ اـقـرـابـاـ مـنـ الـوـاقـعـ وـاحـتـرـامـاـ لـمـشـاعـرـهـ ،ـ وـحـفـاظـاـ عـلـىـ  
الـأـلـادـ وـالـبـنـاتـ أـنـ يـقـلـبـوـاـ الـأـغـنـيـةـ هـكـذاـ :ـ "ـوـالـفـضـلـ بـعـضـوـ  
لـبـابـ جـهـالـ ..ـ لـغـ"ـ وـيـضـحـكـ الأـسـتـاذـ عـالـيـاـ عـلـىـ إـحـلـالـ "ـبـعـضـوـ"  
مـكـانـ "ـكـلـهـ"ـ ،ـ وـكـأـنـهـ قـبـلـ اـعـتـذـارـيـ .

ثمـ تـوـاـصـلـ الـحـدـيـثـ عـنـ سـعـدـ زـغـلـولـ ،ـ وـهـلـ لـهـ أـخـطـاءـ جـسـيـمـةـ أـمـ  
لـاـ ،ـ وـأـرـدـتـ أـنـ أـعـفـيـ الـأـسـتـاذـ مـنـ الـاضـطـرـارـ لـلـحـدـيـثـ عـنـ أـخـطـاءـ  
هـذـاـ الزـعـيمـ الـذـيـ يـجـبـهـ حـبـاـ شـدـيـداـ ،ـ فـإـذـاـ بـهـ يـكـشـفـ حـاـوـلـاتـيـ  
وـيـرـفـضـهـاـ وـيـكـنـىـ عنـ بـعـضـ أـخـطـاءـ سـعـدـ ،ـ مـثـلـ إـصـرـارـهـ أـنـ يـرـأـسـ  
الـوـفـدـ دـوـنـ عـدـلـ يـكـنـىـ الـذـيـ كـانـ رـئـيـسـاـ لـلـوـزـارـةـ ،ـ وـكـانـ مـنـ  
الـبـدـيـهـيـ أـنـ يـرـأـسـ الـوـفـدـ رـئـيـسـ الـوـزـارـةـ

وـعـلـىـ ذـكـرـ التـارـيخـ وـمـفـارـقـاتـهـ ذـكـرـ الـأـسـتـاذـ ثـانـيـةـ كـيـفـ  
أـنـ كـثـيرـاـ مـاـ تـسـمـىـ عـمـرـ مـاـ باـسـ الـمـسـتـضـعـفـينـ فـيـهـ وـلـيـسـ باـسـ  
الـطـغـاةـ ،ـ فـمـثـلاـ :ـ نـسـيـ النـاسـ الـرـوـمـانـ الـقـىـ خـلـتـ طـبـيـبـةـ عـامـاـ  
مـنـهـ بـعـدـ قـتـلـهـ مـعـيـعاـ ،ـ فـلـاـ أـحـدـ بـذـكـرـهـ (ـ لـاـ ذـكـرـ تـفـاصـيلـ  
أـكـثـرـ)ـ .ـ كـذـلـكـ بـالـنـسـبـةـ لـرـمـيـسـ الثـانـ الـذـيـ ذـكـرـ أـنـهـ اـنـتـصـرـ  
عـلـىـ الـحـيـثـيـنـ ،ـ ثـمـ تـعـضـيـ سـتـيـنـ سـنـةـ لـاـ جـارـبـ فـيـهـ وـتـظـهـرـ مـعـاهـدـةـ  
بـيـنـهـ وـبـيـنـ الـحـيـثـيـنـ ،ـ وـأـيـضاـ يـثـبـتـ أـنـ إـحـدـيـ زـوـجـاتـهـ كـانـ إـبـنةـ  
مـلـكـ الـحـيـثـيـنـ (ـ لـاـ ذـكـرـ مـاـ الـعـلـاقـةـ تـحـديـدـاـ!!ـ)ـ .

وـعـلـىـ ذـكـرـ سـعـدـ زـغـلـولـ يـكـنـىـ الـأـسـتـاذـ أـنـهـ حـيـنـ كـانـ سـكـرـتـيرـاـ  
لـعـلـىـ عـبـدـ الرـازـقـ (ـعـرـفـهـ عـنـ طـرـيقـ الشـيـخـ مـصـطـفـيـ عـبـدـ  
الـرـازـقـ)ـ ،ـ يـذـكـرـ أـنـهـ كـانـ عـنـدـهـ فـيـ مـكـتبـهـ لـيـوـقـعـ بـعـضـ الـأـورـاقـ ،ـ  
وـدـخـلـ عـلـيـهـ أـحـدـ وزـرـاءـ "ـعـدـلـ يـكـنـ"ـ ،ـ وـعـزـفـهـ الـوـزـيـرـ بـالـأـسـتـاذـ ،ـ  
فـحـسـبـهـ مـنـ عـائـلـةـ حـفـوظـ أـحـدـ أـقـطـابـ الـأـحـرـارـ الـدـسـتـورـيـنـ ،ـ فـقـالـ

له بالحرف الواحد "شوف يا سيدى عايزين مخزجوا الإنجليز!!" دول هما برجوا النهارده، واحنا وراهم بكره"، ويضيف الاستاذ: إن أعباء الاستقلال كبيرة (جيش وأسطول وطيران.. الخ)، وكانت تفكـر في صورة مثل صور الدـمـينـكـونـ، وأن كثـيرـاـ منـهـ كانوا يستـكـثـرونـ الإـسـتـقـلـالـ عـلـىـ مصرـ، فـذـكـرـتـ لهـ أنـ هـذـاـ كـانـغـوـفـ بـعـضـ العـامـةـ أـيـضاـ، وـحـكـيـتـ لـهـ ماـ حـكـاهـ لـ والـدـىـ عنـ زـمـيلـ لـهـ مـدـرـسـ لـغـةـ عـرـبـيـةـ كـانـ مـاـ زـالـ مـعـمـماـ، زـمـيلـهـ فـ مدـرـسـ الـعـبـاسـيـةـ الـابـتدـائـيـةـ فـ الـثـلـاثـيـنـاتـ، وـقـدـ أـعـلـنـ هـذـاـ الشـيـخـ مـوـقـعـ الـعـارـفـ بـعـاقـبـةـ الـأـمـورـ عـنـ رـأـيـهـ فـيـمـاـ مـاـ يـنـتـظـرـ مـصـرـ بـعـدـ هـذـاـ الـاستـقـلـالـ، أـعـلـنـ تـحـفـظـهـ عـلـىـ قـدـرـةـ مـصـرـ لـادـارـةـ شـوـونـهـاـ، (رعاـ بـعـنـاسـيـةـ مـعـاهـدـةـ ١٩٣٦ـ) وـقـالـ الشـيـخـ زـمـيلـ وـالـدـىـ فـ ذـلـكـ كـلـامـ أـشـبـهـ بـمـاـ قـالـهـ وـزـيـرـ عـدـلـ يـكـنـ فـ مـكـتـبـ عـلـىـ عبدـ الـراـزـقـ لـلـاستـاذـ منـ حـيـثـ أـنـنـاـ لـسـنـاـ أـهـلـ لـتـحـمـلـ مـسـؤـلـيـةـ الـاسـتـقـلـالـ، وـسـاءـ مـوـقـعـ هـذـاـ الشـيـخـ زـمـلاـءـ فـ الـمـدـرـسـةـ، وـكـانـ مـنـ بـيـنـهـمـ شـاعـرـ ظـرـيفـ نـظمـ فـيـهـ شـعـرـ حـكـاهـ لـ وـالـدـىـ، وـمـاـ زـلتـ أـذـكـرـ نـصـهـ، وـطـلـبـ مـنـ الـاسـتـاذـ أـنـ روـايـتـهـ إـنـ كـنـتـ أـذـكـرـهـ، فـقـلـتـهـ:

حرف الشـيـخـ فـضـلـ  
رامـ يـعلـوـ فـتـدـلـ  
مالـهـ وـهـوـ إـبـنـ مـصـرـ  
سـاءـهـ أـنـ تـسـتـقـلـ  
إـنـهـ يـصلـحـ نـعـلـ  
منـ لـيـرـجـلـيـ بـقـفـاهـ

ويوضح الأستاذ من هذا الهجاء الظريف، وبالذات من وصف الشاعر لقـاـ الشـيـخـ الذـىـ يـصلـحـ نـعـلـ، وـلـمـ أـذـكـرـ لـهـ أـنـ وـالـدـىـ كـانـ يـربـطـ هـذـهـ الـحـادـثـةـ باـسـتـجـابـةـ جـدـتـىـ لـأـمـىـ (ـمـاتـهـ) حـينـ دـخـلـ عـلـيـهـ فـرـحـاـ مـهـلـلـاـ فـ نـفـسـ الـمـنـاسـبـةـ وـهـوـ يـصـيـحـ: "ـمـصـرـ اـسـتـقـلـتـ يـانـيـنـةـ"ـ، فـمـصـمـصـتـ شـفـتـيـهاـ آـسـفـةـ وـقـالـتـ وـهـيـ تـخـبـطـ صـدـرـهـ: "ـيـاـ عـيـنـيـ!!ـ"ـ (ـوـكـانـ وـالـدـىـ قـدـ فـسـرـ لـنـاـ ذـلـكـ أـنـهـ فـهـمـتـ كـلـمـةـ "ـاسـتـقـلـتـ"ـ عـلـىـ أـنـهـ مـنـ الـقـلـيلـ وـالـقـلـةـ)

وانـتـقـلـ الـحـدـيـثـ إـلـىـ عـرـاـيـ، وـأـنـهـ أـيـضاـ أـهـمـ بـأـنـهـ اـسـتـعـمـلـ فـمـنـ مـؤـامـرـةـ مـاـ، وـقـلـتـ رـأـيـ فـأـنـ هـؤـلـاءـ النـاسـ التـارـيـخـيـنـ لـاـ يـنـبـغـيـ أـنـ نـكـتـفـيـ بـتـقـيـيمـ حـامـسـهـمـ وـحـسـنـ نـيـتـهـمـ، كـمـاـ لـاـ يـنـبـغـيـ أـنـ نـتـغـافـلـ عـنـ أـخـطـائـهـمـ مـهـمـاـ بـدـتـ الشـهـامـةـ وـوـعـدـ الـبـدـاـيـاتـ، وـأـثـارـ أـحـدـهـمـ اـحـتـمـالـ مـقـارـنـةـ ثـبـتـ أـنـ ثـمـةـ شـبـهـ بـيـنـ عـرـاـيـ وـعـبـدـ الـنـاصـرـ، وـأـنـ عـرـاـيـ - مـثـلاـ - لـمـ يـكـنـ يـفـهـمـ لـاـ فـلـاـ فيـ الـسـيـاسـةـ، وـأـنـ أـقـدـمـ عـلـىـ مـاـ لـيـسـ فـ قـدـرـتـهـ مـثـلـمـاـ فـعـلـ عـبـدـ الـنـاصـرـ سـنـةـ ٦٧ـ، وـأـنـ ثـورـةـ عـرـاـيـ لـمـ تـكـنـ ثـورـةـ بلـ كـانـ "ـهـوـجـةـ"ـ عـاـمـاـ مـثـلـمـاـ كـانـتـ ثـورـةـ ١٩٥٢ـ "ـحـرـكـةـ مـبـارـكـةـ"ـ وـلـيـسـ ثـورـةـ. وـدـافـعـ بـعـضـ الـجـلوـسـ عـنـ فـكـرـةـ الثـورـةـ حقـ لـوـ خـابـتـ، وـانـتـقـلـ الـحـدـيـثـ إـلـىـ عـبـدـ الـنـاصـرـ وـكـيـفـ أـنـهـ بـعـدـ أـنـ حـرـكـ كلـ هـذـهـ الـقـوـاتـ قـبـلـ ٥ـ يـونـيـوـ، عـادـ يـؤـكـدـ بـعـدـ أـنـ حـدـثـ مـاـ مـعـنـاهـ: أـنـهـ "ـمـاـ كـنـشـيـ قـصـدـهـ"ـ، وـ: "ـأـنـهـ وـالـهـ الـعـظـيمـ مـاـ كـانـ بـنـوـ الـحـرـبـ"ـ وـلـمـ يـوـافـقـ أـكـثـرـ الـجـلوـسـ عـلـىـ هـذـاـ الـهـجـومـ مـكـذاـ بـعـدـ كـلـ هـذـهـ السـنـينـ وـالـإـنـجازـاتـ، وـقـرـأـتـ وـجـهـ تـوـفـيقـ صـالـحـ وـشـعـرـتـ أـنـهـ مـنـ أـكـثـرـ الـمـعـارـضـيـنـ لـلـهـجـومـ عـلـىـ عـبـدـ الـنـاصـرـ هـكـذاـ.

وعلى ذكر أنه لا يصح إلا الصحيح قلت للأستاذ: لا يظن مثلما أظن - أن إسرائيل تحمل مقومات هدمها حين تجمعت هكذا بعد شتات، فجمعت خليطا من البشر بلا تجانس ثقافي كاف، وكل ما يجمع ناسها ليس إلا مزاعم دينية هشة، وأضفت أنني أتصور أنه منها بلغت قوتهم المادية والخربية، أنه سوف يظل أساس جمعهم هكذا ضد التاريخ، فرد على الأستاذ قائلا: إن هذا يتوقف على ماذا يفعلون، وماذا سيفعلون، لا أحد يحمل على مقومات وجوده تبعا لما يقوله التاريخ منفصلا عن الحاضر، وإنما الذي يجدد مصر الأمم هو ما تقوم به فعلًا الآن، ومدى تناسبه مع مقتضيات العصر ومع خير ناسهم واحتياجاتهم، قلت له إن مجرد الشعور بالتمييز يحكم عليهم بالفناء، فما لا يصلح لكل الناس لن يصلح لأحد بما في ذلك ناسهم، وأن التاريخ ينحاز لمن ينحازون لصالح الجميع، أي أن استمرار أية مجموعة من الناس إنما يتوقف على اتجاه سهم ما يتوجهون نحوه وما يعدون به البشر كافة في نهاية النهاية، وقال "حافظ" مندفعا إن هذه القبلية مرفوضة حق على المستوى البيولوجي، فلو أن خلية من خلايا الجسم حاولت أن تميز وأن تتفوق على الخلايا اللاتي لا تمثلها ملائكة لتوها، ونبهته أن الذي يحكم علاقة خلايا الجسم ببعضها ليس التمايل وإنما التكامل والتكافل، فمن المستحيل أن تكون الخلية الكبدية مثل خلية المخ مثل خلية الأظافر، لكن الذي جمع هذه الخلايا هو الوجود الحيوي المتكمel في جسد كائن حي يقال له إنسان، وأن الخلية التي تختلف عن جارتها دون تكافل، ليس بالضرورة أن يكون مصيرها الموت فهي قد تتوجه بغيرها حتى تنقلب سلطانا يقضى على حياة الكائن كله بكل خلاياه، وهي ضمن ذلك.

ثم يعود الحديث إلى التاريخ ويدور حول كتابة الأناجيل، ويقال أنها تربو على الأربعين، وإلى درجة أقل تناقش كتابة الأحاديث، ويدركنا أحدهم أن حادثة المائدة التي نزلت من السماء لم ترد أصلًا في بعض الأناجيل، ويقول توفيق صالح إنه أجرى تجربة على طلبة معهد السينما أيام كان يحاضر فيها وذلك بأن عرض عليهم مشهدًا قصيرًا (بعض دقائق) ثم طلب منهم أن يعيدوا هذا المشهد، فكانت النتيجة أنه لم تتماثل حكاية واحد منهم مع الآخر.

وبينها الأستاذ أن المقارنة تحتاج إلى وقفة لنتبين الفرق، وأنه علينا أن نتذكر أن الرواية قدماً كانوا يتمتعون بذاكرة خاصة وفائقة، لأنعدام وسائل التسجيل الأخرى، فأذكر له إسم الكتاب المترجم الذي قدمناه في ندوتنا الثقافية منذ شهرين عن الحضارة الشفاهية والحضارة الكتابية، ولا ننتهي إلى اتفاق جامع، وتظل مصادقة التاريخ رهن المناقشة.

ونعود إلى الإشارة التي ذكرتها عقب عودتى من أسيوط ضمن مثلى لجنة الثقافة العلمية Link عن اللغة، وكيف أن اللغة هي نبض غائر في البيولوجيا، وأنها تتشكل في الكلام حسب اللسان، وأن القرآن الكريم حين نزل في الجزيرة العربية

أطلق سراح هذه البيولوجيا اللغوية لأهل هذا اللسان فاقتربوا من فطرتهم فأسلموا، وأكمل دهشى وإعجابي بهؤلاء الذين لا يتقنون العربية ثم يسلمون، وأعيدهت الإشارة إلى إسلام السفير الألماني "مراد هوفمان" وما وصلني من كتابه الذى أشرت إليه سالفاً، وكيف أنه التقى نبض القرآن الكريم هكذا وهو ليس عربياً، وأعلن خجلى من، وأسفى على، أهل اللسان العربى الذين تنازلوا عن إعادة معايشة لغة قرآنهم وأهدروا هذه الفرصة النادرة، ولم يعجب الكلام بعض الجلوس، ووصلنى تعليق الأستاذ من درجة هزة رأسه كنوع نوع "الموافقة المحدودة"، وهذا هو طبعه الغالب حين لا يريد الإعراض الصريح.

كانت معنا في هذا اليوم د. مها وصفى وزوجها الطيار محمد، وقد ذكرت بعض حوارها مع شخص مسيحي لم تجد بينها - وهي المسلمة الحجبة - وبينه فروقاً تذكر إذا قيست المسألة بمقاييس الفطرة والبسط والإبداع والتوجه للخير، وقلت للأستاذ هل يذكر مسألة القيم والأخلاق الجديدة التي تصورث، أو أملأ أنها قادمة لا حالة وكانت قد عدتها له، وبينت كيف أننى أعتقد أنها على وشك الولادة مع هذه التغيرات العملاقة في "الوسائل" الحديثة، ثم الأحدث فالأحدث، وأكملت: إننى أحسب أن هذه القيم الجديدة سوف تقع في منطقة ما من الوعى البشري بحيث تكسر كلا من "الإيمان" و"الواقعة" حالة كونهما متوجهين إلى "عدل مكن" (ولونسي) إذ يبدو أن العدل (وهو اسم الله) هو قيمة جاذبة إليه (إلى الله)، لكن يبدو أنها ليست م肯ة التحقيق " هنا و الآن" (حالا). وأضيف أن العدل هو احتمال دائم الخضور، وفي نفس الوقت ناقص التجلى، إلا أنه في كل حال دائم الجذب إليه، والله (العدل سبحانه) هو أيضا كذلك، دائم الخضور دائم النداء إليه، وهذا غير الوصول إليه، ولم أستطع أن أشرح أكثر من ذلك، حين يصل الخوار إلى هذا النوع من التنطير يتوقف الأستاذ عن التحاوار، فقد لاحظت أنه ذو حضور فلسفى، وتوجه فلسفى، وإنما ات فلسفية، لكنه قادر على أن يصبح كل ذلك في لغة غير فلسفية، لغة عادية أشد ما تكون العادية، وهذا من أروع ما عرفته من تجلياته في الفعل البوسى، في القول البوسى، في السرد البوسى.

ونرجع إلى حضور الدكتورة مها وصفى وما جرنا إليه من حديث عن خبرة وروعة "الولادة" (البيولوجية) وكيف أن التدخل الطبيعى الحديث بالتدخل شبه الحتمى عند الولادة قد حرم الأمهات من معايشة هذه الخبرة، ويعترض توفيق صالح محتاجاً من أنه لا يمكن أن تكون آلام الولادة كما عاينها ويسمع عنها هي خبرة رائعة كما تقول د. مها، وأنبهه إلى أن الألم ليس مناقضاً لروعه الخبرة وعمقها، وأجيشه إلى الدكتورة مها (وعندما طفلاً)، فتحتده عن خيرتها أثناء الولادة، وأنها كانت على يقين من الفرج القريب، ومن عبر القادر المضيق بسلام بفضل الله، فيؤكد توفيق صالح أن ذلك تفسير عقلان يستند إلى موقف ديني، لكن الألم الذى لا يخففه بالضرورة هذا اليقين الدينى هو ألم بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، فأعاده أحوال أن أوصل له موقفى من أن الألم لم يصبح كذلك في أغلب حالات

الولادة العادبة إلا بعد أن انفصلت الأم (الإناث) عن الطبيعة، وافتقدت الأم إلى التدريب على برامج الحركية المزنة، بما في ذلك حركية الدخول والخروج، التي تتجلى في خاص الولادة الذي يتراوح بين الاحتواء والسماح.. إلخ. وحيث أن معلوماتي في باريس عن مراكز التدريب على الولادة بدون ألم، وعن الخبرة التي وصفتها بعض الأمهات من أنهن يصلن إلى "ذروة هزة الجماع" أثناء الولادة، ثم عن خالي "صديقة" (صديقه) التي ذهبت جمع بعض الملوخية لأمي من حقول القطن وهي في شهرها التاسع، ثم عادت تحمل وليديها الذي ولدته وحدها في الحقل، فلقته في طرحتها، وربطت الحبل السري بنفسها، وتخلصت من "الخلاص" في الترعة بعرفتها، ثم وضعت طفلها في "المشنة" - فوق الملوخية، وعادت تحمله على رأسها إلى الدار سائرة على قدميها.

وigrنا هذا الحديث إلى تفسير لطقوس الأسبوع، وكيف أن الولادة النفسية تتأخر كثيراً عن الولادة الجسدية، وأضيف أن هذا أيضاً من ضمن التشوهات التي لحقت بالعملية الانتخابية، إثر الانفصال عن الطبيعة، فراح الخُذُس الشعري يستلهم وجداً أنه فألف هذه الطقوس التي يريد بها أن يشحد إنتباه "الأم" حتى تدرك أن ما كان بداخلها قد أصبح خارجها، قلت: إن "دق الهون" هو للأم وليس للطفل، ثم إنهم يطلبون من الأم أن تخطط وليديها في الغربال سبع مرات، **(أنظر تفاصيل ذلك في نشرة الأسبوع بتاريخ 22-1-2008)** وكأنهم مع كل دقيقة "هون"، ومع كل خطوة (وطقطية) يقولون لها "هذا هو طفلك خارجك - صنّقى أن ما كان بالداخل ملوك وحده، أصبح كياناً مستقلاً منفصلاً عنك"، وأفقت أنتي حاولت أن أعمل بعثاً علمياً لأثبت بعض هذا، فظهرت النتائج مضحكة، ولم تثبت شيئاً، وعزّوت ذلك ليس لقصور في الفرض، ولكن خيبة في الطريقة (المنهج) فسؤال الأم (متلاً) عن معنى كذا أو كيت، أو عن ما تشعر به إزاء هذا الطقس أو تلك الأغنية "بِرْجَالَاتْ... بِرْجَالَاتْ" "إنما كلام أمك" (ربما تطمئن بيالها أنه مازال طوع إشارتها)، "ولا تسمعشي كلام أبيوك، عشان أمك بتعرف عن أبيوك" .. إلخ حين تُسأل الأم بالألفاظ أثناء إجراء بحث علمي عن كل هذا، لا بد أن تتوقع أنها سوف تجيب عن أي شيء إلا عن ما يعنيه هذا الفرض من التأكيد على حركية الوصول/الفصل، وعلى برنامج الدخول والخروج، وعن الولادة النفسية .. إلخ.

**(ملحوظة:** أكتب هذه الإضافة يوم 1995/3/22 في أنطاكييا بتركيا، في شرفة فندق متواضع اسمه "سارة"، وقد وجدت في أوراقى مقتطفاً عن نجيب محفوظ لا أعرف متى أثبته، حين قال له: أن بعض الأتراء، أو الذين من أهل تركى، كانوا يرددون ما زحين أو جادين رداً على من يفخر أن "النى عربى" كانوا يردون قائلين: إذا كان الذى عربى.. فربنا تركى).